فلسفة « كأنّ »[1]

في الهند وفي الغرب

نظرة المقارن

— ٢ —

للسيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

يقول شنكرا (٧٨٨ — ٨٥٠ ميلادية) الذي يعد عبقريته الاستاذ دائسن الالماني مثل عبقرية كانت Kant ، لان شرحه لاوبانيشاد قضى على البوذية في الهند ، يقول إنهُ من الممكن أن تُتصوَّر — عقلاً — حالتان للعلم : حالة وِدّيا ، وحالة أوِدّيا . ففي الاولى لا وجود في خارج آتمان ، وفي الثانية من الممكن أن نفرض وجوداً خارجيًّا منفرداً عن المدرك العامل . ولكن هذا الوجود الخارجي من نوع خيالي . ويقول شنكرا في الختام ان العلم الحقيقي علم ينعدم فيه تثليث الادراك والمدرِك والمدرَك

ويقول رامنوج الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي ان من حرف « ايرا » (أي كأنّ بالعربية) يفهم ان استقلال معمولها أو بألفاظ أخرى استقلال الحقيقة الخارجية غير ممكن الادراك[1] ثم يقول انهُ حين ينال روح الفرد توفيقاً من بَرَماتما (أي الله) يقدر على أن يعرف جميع الاشياء حتى برماتما بنفسه

يقول مادهو الذي يحصر الموضوع في سياقه أي الحياة بعد الممات ، بامكان ادراك معمول كأنّ الى حد تبعيته لها وتوقفه عليها وانهُ غير ممكن أن يعرف أحدٌ الله الذي هو وجود ذو شخصية والذي يعرف روح الفرد بواسطته جميع الاشياء

قد رأيتَ مما سبق من بيانات مفهوم « كأنّ » ان شنكرا يرى انها تشمل نظرية المثال أي نظرية وجود غير حقيقي ، بينما يرى رامنوج انها تدل على ان استقلال الحقيقة الخارجية لا يمكن ان يدرك ، في حين يرى مادهو انها تشمل توقف الحقيقة الايجابي على وجود ذي شخصية . والآن نتحدث اليك عن فلسفة « كأن » عند الفيلسوف الالماني هانز فاي هنجر

---

(١) وهو رأي يدل على ان رامنوج سبق فيه الفيلسوف الانجليزي الشهير بركلي Berkeley (١٦٨٥ — ١٧٥٣ م) الذي تشدد في فلسفته ان لا وجود لاهداف حواسنا مستقلا عنا ، وقد استفتد وسعه وطاقته في اثباته بخاصة في كتابه « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس » . وهو نفس ما تادى به رامنوج قبله بخمسة . وذا ان استقلال الطبيعة [illegible]

الفيلسوف هانز فاي هنجر وفلسفة "كأن"

أظن أن العالم يجل في فكر ياجنا والكيا حين وضع فلسفته الكأنية ولا خطر ببال شارحيها انهُ سيرتفع في تأييدها وترطيدها صوت من اوربا بعد مرور خمسة وعشرين قرناً على وضعها. وهذا الصوت هو صوت الفيلسوف الالماني الحاد الذكاء هانز فاي هنجر

أشار فاي هنجر منذ سنين الى أن التعبيرات المثالية أي التشبيهية تستعمل في أربع لغات أوربية هامة للدلالة على طابع الحقيقة الخيالي: ففي اللاطينية يرأس ذلك التعبير حرف quasi وفي الفرنسية comme si وفي اليونانية os,ei وفي الالمانية als ob ومن الاخير سمي فلسفته Philosophie des Als Ob ولم يكن له نصيب من الاستشراق والا لعرف ان حرف «أيوا» بالسنسكريتية و «كويا» بالاردية والفارسية و «صانكه» بالتركية و «كأن» بالعربية تستعمل في نفس المفهوم الذي يستعمل فيه als ob

يرى الاستاذ الانجليزي ولف ان فاي هنجر استلهم فلسفته من نواح مختلفة، من وضعية كانت Kant التي تحصر العلم الانساني في التجربة ومنفعيته التي ترجع الى تقديم العقل العملي، ومن ارادية شوبنهاور وتشاؤمه، ومن نشوء داروين، واختيارية بل التي تحوّل الحقيقة الى امكانات الاحساس الدائمة [1]

لكن فاي هنجر يقول لنا غير ذلك وشهادة الرجل على نفسه أصدق من شهادة غيره عليه فقد أبان فاي هنجر في ترجمة حياته التي كتبها هو [2] انهُ استلهم فلسفتهُ من كانت. فكانت نجمة عظيمة مثلاً لاة استنار بها فاي هنجر في وضع فلسفته. وهو يعزو الى مصنفات كانت المختلفة منوهاً بان التعبير الحقيقي فيها تعبير كأنّي اي خيالي لذلك لا يقدر عنده التعبير المختص بالكمال التصوري، ولا العقلي، ولا التجريبي حتى لا الانتقادي الصحيح على ان يفسر فلسفة كانت تفسيراً حقيقياً بل يجب ان تفسر هي من جهة النظرة الخيالية ان عقيدة كانت في عالمين، عالم التصورات العقلية البحتة Noumena، وعالم التصورات المبنية على الحواس Phenomena عدّنا بأساس يجب أن نبحث فيه عن جرثومة الفلسفة الخيالية او الكأنية - فحين يقول لنا كانت يجب علينا ان نفرض كأن هناك عقلاً خالقاً في العالم [3] وحين يقول يجب ان نعتبر الارادة كأنها حرة وان كنا لا نقدر على ان نقول شيئاً في شأنها من وجهة التصورات المبنية على الحواس [4]، وحين يقول يجب ان يسلك كل رجل

(١) Outline of modern knowledge p. 578

(٢) راجع ترجمة حياته هذه في المجلد الثاني من كتاب:
Die Philosophie der Gegenwart in Selbstdarstellung

(٣) Philosophie des Als Ob p. 360 (٤) Grundlegung zur Metaphysik der Sitten

سلوكاً كأنهُ عضو من مملكة الغايات التي تعرض فكرة كلية الغايات الكاملة المجتمعة في نظام[١] وبعين يقول يجب أن نعد قانون الاخلاق مقدساً كأنهُ أمرٌ الهي[٢] واخيراً حين يقول في نقد الحكم انه يجب ان نفرض كأن هناك عقلاً مدركاً لا يطرأ عليهِ اي طارىء للتوفيق بين قوانين الطبيعة الخاصة والتهيؤ[٣]. كل ذلك ينبئنا باتجاه خيالي بحت سائر في جميع الانتقادات كانت. وهذا الاتجاه على ما يقول لنا الاستاذ ڤاي هنجر هو ملهم فلسفته الكأنية اي الخيالية

وهنا نرى كيف ان فلسفة « ايوا » (أي « كأن ») لياجنجر والكيا تنطبق على تعبيرات كانت الكأنية تمام الانطباق. فمع انه لا يوجد هناك وجود خارجي حقيقي نحن نسمعهُ يقول إنه يجب علينا أن نفرض كأن هناك أحداً لاجل أعمال الادراك المختلفة. ثم يؤكد أن الحقيقة الوحيدة للانسان وأما الاشياء الاخرى كلها فخيال

يتطرق الى البال سؤال وهو ما حقيقة هذا الخيال أي ما هو معمول كأن الذي نراهُ بهِ ياجنجر والكيا ولوماً اليه كانت وأنشده ڤاي هنجر ؟ وما هو طبعه ؟ فيقول انسا الاستاذ هايزنبرش اشت : ان الغلبة على مشكلات الفكر ولإدراك هدفه يُفرض بعض الفروض تخالف الحقيقة او تشتمل هي نفسها على التناقض. فالتصورات الفنية الكاذبة المعلومة التي تكوّن تلك الفروض هي معمول كأن أو الخيال[٤] ويقول ڤاي هنجر ان معمول كأن أو الخيال هو الفرض غير الحقيقي مع الشعور به لاجل الاغراض العملية. والفرق بينهُ وبين الفرض العلمي ان الاخير يمكنهُ ان يحقق ويثبت ولكن الاول لا يمكن تحقيقه بتاتاً[٥]. وعليه فالاخير يمكنهُ ان يكون حقيقيًّا لانهُ قابل التحقيق ؛ ثم إن جميع الاكتشافات تتكوّن من الفروض العلمية ولكن معمول كأن او الخيال لا يساعدنا على ان نكتشف ان جميع العلوم الانسانية مفعمة بأمثلة هذا الخيال. فالعلوم الرياضية والطبيعية والاخلاقية والميتافزيقية واليونانية والمنطق ليست بخالية من اثره[٦] كل منها يختار بعض الفروض غير الحقيقية ثم يبني عليها بناءه ثم ان طبيعة العلوم في ذاتها مثل الفروض التي تفرضها خيالية. فڤاي هنجر ينبهنا كيف يكون تصور النقطة في علوم الرياضة والجوهر الفرد في علوم الطبيعة خياليًّا[٧] إذ لا توجد نقطة

---

(١) Philosophie des Als Ob p. 292 (٢) Watson : Selections from Kant p. 248

(٣) Watson : Selections from Kant p. 339

(٤) Philosophisches Wörterbuch p. 633

(٥) راجعه في ترجمة ڤاي هنجر في المجلد الثاني من كتاب : Die Philosophie der Gegenwart in

(٦) Robinson : Anthology of Recent Philosophy p. 588 Selbstdarstellung

(٧) كان من فلاسفة الاسلام ابن سينا الشرقي سنة ١٠٣٧ م والسهروردي المقتول سنة ١١٩١ م سبقا ڤاي هنجر في ادراك هذه الحقيقة مخاصة في علوم الرياضة عند ياجنجر والكيا. فكان ابن سينا يعد موضوعات علوم الرياضة من الوهميات (راجع « النجاة » طبع مصر ص ٩٨) كذلك صرح السهروردي في كتابه « المطارحات » ان مباحثنا في علمي الامور الوهمية [illegible]

حقيقية ولا جوهر فرد حقيقي ينطبق عليهما ما عند تلك العلوم من الحدود لها . اذ التصورات والتصديقات ، والجزئيات والكليات كلها خيالية فالقياس المنطقي من باب الاول خيالي ، والمادة والعقل خياليان . والجوهر الفرد الحي Monad الذي أثير حوله في الفلسفة نقاش كثير من نوع خيالي أيضاً . وحتى الملوك الالهي خيالي وحرب الجميع ضد الجميع التي أطنب هابز فيها الكلام خيالية . «والمجرد» الذي يعتبر أعلى الافكار في الفلسفة من نوع خيالي والقيمة والغاية كذلك خياليتان . واللامتناهي والمتناهي في الصغر من نوع خيالي . وجميع النسب المتوسطة ، والأمثلة والرموز خيالية . جميع المقولات ، والتصورات مثل الواجب والالوهية كذلك خيالية . هكذا يشرح لنا ڤاي هنجر ان جميع العلوم الانسانية متأثرة بمعمول كأن أي الخيال . وهو يقول ان تلك الآثار أو بلفظ آخر تلك الفروض أخطاء ارتكبت عمداً للاغراض العملية . وهنا نرى ان ڤاي هنجر وافق المذهب العملي النفعي (براجماتزم) . ولكنهُ لا يلبث أن يشذ عنهُ حين يقدّم في فلسفته فكرة جديدة[1] هي فكرة الحقيقة المزدوجة التي سنخوض فيها بعد

مما لا يحتاج الى بيان انهُ لو عاش ياجنا والكيا في العصر الحاضر لقدّم لنا هو أيضاً مجموعة الأزهار المتنوعة التي تفتحت على دوحة العلم الانساني في خمسة وعشرين قرناً لاستدعاء فلسفته الكأنية كما قدم ڤاي هنجر . على اننا نجده حصر مجهوده في فصم الغمام عن العلاقة بين النفس والعين في العمليات النفسية المختلفة بمقتضى الزمان والمكان . فهو يفرض في فلسفته ان الحقيقي الوحيد هو الوجود النفسي ، وأما الوجود العيني فمن نوع خيالي . وهنا نجد فرقاً ذا شأن بين فلسفة ياجنا والكيا الكأنية وفلسفة ڤاي هنجر الكأنية. فان فلسفة الاخير ارجاعية أو حسّية على حين فلسفة الاول آتمانية

ثم إن فلسفة ڤاي هنجر التي وضعت في سنة ١٨٧٦ ميلادية ونشرت أول مرة سنة ١٩١١ ميلادية ، ان أتيح لها ما حاولت وتيسر لها مرادها في أندية العلم والفلسفة بخاصة في المانيا ، لم تخلُ من سيل المؤاخذة ولا نجت من مطاعن النقد . فقد عجم اعودها وقلبوها بطناً لظهر وسألوا صاحبها : انهُ اذا أصبحت جميع الأمور الواقعية خيالية فماذا بقي[2] ؟ فرد عليهم ڤاي هنجر : ان هناك وجودين يمكن ان يقال فيهما اننا نتأكد حقيقتهما وهما : فيضان الاحساس وقانون المماثلة والمخالفة

وهذا الرد وان قدم فكرةً جديدةً — فكرة الحقيقة المزدوجة — لا يخلو من مراجعة

(١) Robinson: Anthology of Recent Philosophy p. 595

(٢) راجع نقد الاستاذ غر الانكليزي في مجلة :
Mind (New Series) vol. XXI. p. 96-101:

نظر . فان علم النفس يقرر ان الاحساس المجرد خيال محض [١] فاذا قال لنا فاي هنجر ان فيضان الاحساس هو الحقيقة القصوى فاذا يعنينا لو قلنا له ان «الفيضان» و«الاحساس» كلاهما خيال

كذلك كان تطبيقه لفلسفته على علم المنطق موضع نظر عند العلماء . فقد صرّح الفيلسوف الالماني والبطل العالمي في لعب الشطرنج الدكتور امانويل لاسكر في كتابه « النقابة في خطر » انه تجاوز في تطبيقه هذا حده فان التصور يمكن أن يستخدم لمعمول كأن أو الخيال ولكن علمه ووجوده ليسا من معمول كأن أو الخيال . فالدائرة البيضاوية في ذاتها ليست معمول كأن . انما الدائرة البيضاوية التي تدور عليها الارض حول الشمس معمول كأن [٢]

حين ننعم النظر نجد ان لفكرة الحقيقة المزدوجة شأناً كبيراً في الفلسفة الكانية . فالحقيقة المزدوجة عند فاي هنجر كما ذكرها بشيء من التناقض في ترجمة حياته ، هي عالم الاحساس وعالم المادة وهي فكرة لم يرتح لها اصحاب المذهب العملي النفعي (براجاتزم) فناقضوه فيها أشد النقاش لانهم يعتقدون ان جميع الحقائق صنف من الاغلاط وجميع الاغلاط صنف من الحقائق . لان الحقيقة عندهم هي الغلطة الناجحة والغلطة هي الحقيقة الفاشلة . لذلك لا وجود عندهم لثنائية الحقيقة

كذلك كانت فانهُ اعتقد في حقيقة عالمين : عالم التصورات العقلية البحتة Noumena وعالم التصورات المبنية على الحواس Phenomena ونشر بذور الفلسفة الكانية في مصنفاته وفلسفته التقطها فاي هنجر

اما ياجنا والكيا فقسم الحقيقة قسمين : قسم أعلى وقسم ادنى . فالأعلى هو عالم التجارب الآتمانية الذي سماه شنكرا « وديا » والادنى هو عالم التجارب الانسانية الذي سماه شنكرا « اوديا » . وعليه ففكرة كانت اقرب من فكرة ياجنا والكيا . غير ان ياجنا والكيا اعلن ان حقيقة عالم « أوديا » حقيقة كأنية اي خيالية . واما حقيقة عالم « وديا » فحقيقية ، لان الآتمان عليم خالد مصدر جميع الكائنات وأصل جميع التجارب

قد رأيت مما سبق ان اساس فلسفة « كأن » لفاي هنجر ارجاني أو حسي فهي واهية الاسباب ضعيفة القواعد عن حين أساس فلسفة « كأن » لياجنا والكيا صخرة الآتمان الخالد فهي ثابتة الدعائم مشيدة الاواخي . كلاهما فلسفة « كأن » لذلك يتشابهان ، بيد أن الفرق الاساسي بينهما ذو شأن خطير

---

(١) W. James : Text-Book of Psychology p. 13

(٢) Die Kultur : Ingefahr Von Dr. E. Laskar p. 14